ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

قال تعالى على لسان إخوة يوسف: { ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين}.

وهنا تتداعى مجموعة من الأسئلة: أكان يعقوب حقاً يميز يوسف وأخاه لأمه على سائر الإخوة؟ وما سبب هذا التمييز إن وجد؟ وكيف يُقبل إن، حصل، من نبي؟

من الواضح قبل الإجابة أن مشكلة الإخوة الحقيقية هي مع يوسف؛ بدليل كلامهم هم { ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا}، فأولاً لم يذكروا أخا يوسف بالاسم بل أضافوه إلى يوسف، وكأن مشكلتهم مع هذا الأخ، الأصغر كما يبدو، هي كونه أخا يوسف، لا لأنهما ابنا امرأة أخرى، سوى أمهاتهم، كما حاولوا الإيحاء عن طريق الجمع بينهما.

ومن جهة أخرى، فإنهم لم يقولوا مثلاً: (إن أبانا يحب، أو يؤثر، علينا يوسف وأخاه)، بل ابتدأوا الكلام باسم يوسف:{ ليوسف ... أحبُّ... منا}، ما يعني في الواقع وبشهادة الإخوة أنفسهم، أن لدى يوسف ما يجعله أحب منهم، ليس من قبل أبيهم وحده!!

يؤكد ذلك أن الذي اشترى يوسف من مصر قال لامرأته: { أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً}، ما يعني أن القليل من الفراسة في وجه يوسف عليه السلام، تملأ القلب بحبه إلى درجة الاستعداد لاتخاذه ولداً، وتبعث في نفس الناظر اليقين بأن لهذا الفتى مستقبلاً باهراً، فكيف بإخوته الذين يعايشونه صباح مساء؟

فإذا علمنا أن يعقوب هو امتداد لآل إبراهيم عليهم السلام، وأنه وآله كانوا في انتظار نبي يوحى إليه، ليرث النبوة وتستمر السلسلة، عندئذ يتبين أن الأمر أبعد وأكبر من مجرد تمييز الوالد لبعض أولاده على الآخرين، بمعنى أن شخصية يوسف وسلوكه وأخلاقه، جميعها توحي بأنه هو النبي القادم، وهذا يثير حفيظة الإخوة كون يوسف سينال هذه المنزلة دونهم، ومن جهة أخرى، فإن فوز يوسف بالنبوة سيعني أن يكون الإخوة الباقون تبعاً له، وهم أولى بها!!؛ كونهم عصبة، أي أنهم جماعة وأقوياء، وعليهم الاعتماد في الرعي وسائر الأعمال، حسب منطقهم البدوي!! ولقد حدثنا القرآن عن الذين اعترضوا على اختيار محمد صلى الله عليه وسلم، لوجود من هو أعظم منه!! (وقالوا لولا نزل هذا لقرآن على رجل من القريتين عظيم).

وإذا كان يوسف وأخوه، لكونهما صغيرين، ينالان من أبيهما ما ينال كل صغير في مثل عمريهما، فلا يصح أن يقال إن هذا تمييز لهما على باقي الإخوة.

إن تحذير يعقوب عيه السلام ليوسف ألا يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً، يعزز أن سبب الكيد المتوقع هو مضمون الرؤيا، أي إكرام الله تعالى ليوسف بالنبوة والملك، ومع ترجيحنا أن يوسف لم يقص رؤياه عليهم، لكن أمارات أخرى في شخصه وسلوكه تقول للمحيطين الكثير من مضمون تلك الرؤيا، وربما سول الشيطان للإخوة أن لأبيهم يعقوب دوراً في اختيار النبي القادم، وأنه بالتالي سيخص بها يوسف من دونهم.

وهنا يتعين التأكيد على أنه من المستحيل أن يقع من نبي الله يعقوب تمييز بين أبنائه؛ فإن الرسل بعثهم الله تعالى ليقيموا العدل والقسط بين الناس،{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، (سورة الحديد: 25).

وقد جاء في أواخر السورة كلام الإخوة ليوسف ما يؤكد الذي قلناه:{قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين}، ومعنى قولهم: لقد كنا خاطئين في زعمنا أن أبانا يميزك علينا، والحق أن الذي آثرك هو الله تعالى، والله سبحانه لا يميز بين الناس لسواد أعينهم، وإنما يصطفي من عباده بناءً على علمه بهم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد قالوا إنهم كانوا (خاطئين)، لا (مخطئين)؛ من الخطيئة المقصودة والذنب المتعمد الواعي، لا من الخطأ في الاجتهاد والتقدير.

ويتضح من كلامهم مع يوسف أن فيه لهجة اعتذار له على ما قاموا به تجاهه، لكن كلامهم مع أبيهم ليس فيه تلك اللهجة، بل طلبوا منه أن يستغفر لهم، لعلمه وعلمهم، أن مشكلتهم الأساسية مع بالرغم من إساءاتهم العديدة لوالدهم، لم تكن مع أبيهم بل مع يوسف حيث مكروا به لمكانته، وعصوا ربهم وهم يحسدونه على تلك المكانة ومن ثَمّ:{ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين}.

وهذا يدفعنا لتصويب ما نراه خطأً يقع في البعض، وهم يفرقون بين رد يعقوب ورد يوسف عليهما السلام على اعتذار الإخوة، فيستنتجون أن الشباب أسهل وأكثر صفحاً من الشيوخ، حيث قال يوسف لإخوته :{ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم}، بينما كان رد يعقوب :{ سوف أستغفر لكم ربي}، ولست أجادل هنا في صحة أو عدم صحة الفرق بين نفسية الشباب ونفسية الشيوخ، ولكن الاعتراض هو على صحة استنتاج الفكرة من الآيات، فيوسف عليه السلام تكلم بما تكلم به لأنه يعفو عنهم إساءاتهم له، وذلك أمر لا يؤجله الكريم، بينما يعقوب عليه السلام يريد أن يستغفر لهم ذنوبهم في حق الله تعالى وتلك المتعلقة بأخيهم يوسف، والدعاء يحتاج تفرغاً واستعداداً وإلحاحاً وليس مجرد كلمة عابرة، لا أنه يريد أن يسامحهم فيما اقترفوه بحقه، بل إن عدم اعتذارهم لأبيهم في إساءاتهم له وعدم ذكر يعقوب لذلك، فضلاً عما صحبهم به من الصبر الجميل على مدى سنين طويلة، يدل دلالة عظيمة على نفسيته عليه السلام.